

الفصل الثالث

أحوال الأمريكيين الإنجليز الاجتماعية

تنشأ الأحوال الاجتماعية من الظروف عادة ، ولكنها تنشأ أحياناً نتيجة القوانين ، وتنشأ أكثر من ذلك نتيجة لهذين السببين مجتمعين . فإذا ما استقرت هذه الأحوال الاجتماعية وتوطدت ، عدت - بحق - مصدر القوانين كلها تقريباً ومنبع العادات والأفكار التي تنظم أمور الأمم . أما ما لم يصدر عنها نفسها مباشرة فهي تعدله وتحوره . فإن شئنا أن نقف على قوانين أمة ما ، وعلى سلوكياتها ، وجب أن نبدأ بدراسة أحوالها الاجتماعية .

الديمقراطية أبرز سمة تتسم بها أحوال الأمريكيين الإنجليز الاجتماعية

أوائل المهاجرين إلى نيو إنجلاند - تساويم - القوانين الأرستقراطية أدخلت في الجنوب - عصر الثورة - تغيير في قوانين الميراث - الآثار التي تربت على هذا التغيير - بلغت الديمقراطية أقصى حدودها في ولايات الغرب الجديدة - المساواة في المواهب العقلية .

تخطر ببال المرء خواطر هامة كثيرة عن أحوال الأمريكيين الإنجليز الاجتماعية ، ولكن خاطراً منها يسبق سائرهما ويطفئ عليه . فأحوال الأمريكيين الاجتماعية ديمقراطية إلى مدى بعيد ، ولقد كانت هذه الديمقراطية سمها عند إنشاء المستعمرات ، ولا تزال بارزة كل البروز في الوقت الحاضر .

ذكرنا في الفصل السابق أن المساواة كانت قد بلغت مبلغاً عظيماً بين المهاجرين الذين نزلوا شواطئ نيو إنجلاند واستقروا فيها ، فحتى بذور الأرستقراطية نفسها لم تبذر قط في تربة ذلك الجزء من الاتحاد ، فالسلطان الوحيد الذي غلب على نيو إنجلاند هو سلطان العقل . فقد ألف الشعب أن يخدم أسماء معينة باعتبارها رموزاً تمثل المعرفة والفضيلة . وكان بعض المواطنين قد أحرزوا سلطة على سواهم كان يمكن أن نسميها أرستقراطية بحق لو أن الآباء استطاعوا أن يورثوها أبناءهم .

كانت هذه هي الأحوال شرق نهر هدسن ، أما إلى الجنوب الغربي منه حتى فلوريدا ، فالحال غير الحال . ففي معظم الولايات الواقعة في الجنوب الغربي من هذا النهر استقر نفر من كبار الملاك الإنجليز الذين جاءوا معهم من بلادهم مبادئ أرستقراطية

وبقانون الميراث الإنجليزي . هذا ، وقد شرحنا من قبل الأسباب التي جعلت إقامة أرستقراطية قوية في أمريكا أمراً مستحيلاً . وما زالت هذه الأسباب قائمة في الجنوب الغربي من نهر هدسن ، ولكنها هنا أضعف بكثير منها شرقيه . ففي الجنوب يستطيع رجل واحد أن يزرع مساحات واسعة من الأراضي بمعاونة العبيد . ومن المناظر المألوفة في ذلك الجزء من القارة أن نرى رجالاً من أصحاب الأملاك الأثرياء ، ولكن نفوذهم ليس أرستقراطياً بالمعنى المفهوم في أوروبا . فهم لا يملكون أية ميزات خاصة . هذا ويقوم العبيد بزراعة تلك الأراضي مما لا يجعل لأصحابها مستأجرين يصح أن يتخذوهم أتباعاً لهم يعتمدون عليهم ، فلا غرو إذن إن لم تكن لهم أية سيادة إقطاعية .

ومع ذلك فقد جعل كبار الملاك هؤلاء ، جنوى نهر هدسن ، من أنفسهم طبقة عالية لها أفكارها وأدواقها الخاصة بها ، حتى صارت محور كل عمل سياسي . فكان هذا النوع من الأرستقراطية يشارك كتلة الشعب في عواطفهم ، وسرعان ما يناصر مصالحهم ويجاريهم في شهواتهم وميولهم . ولكنها مع ذلك كانت أرستقراطية ضعيفة وقصيرة الأجل ، فلم تجتذب إليها محبة الشعب ولم تثر فيه الحقد عليها . تلك هي الطبقة التي ترعمت الثورة في الجنوب ، وزودت الثورة الأمريكية بخير زعمائها .

وكان المجتمع قد اهتز في هذه الفترة أيما اهتزاز . فقد رغب الشعب . الذي من أجله قام النضال ، في أن يمارس بنفسه ما ناله من سلطات - بعد أن تحركت فيه نزعات الديمقراطية واستيقظت ، وبعد أن أنضى عن عاتقه نير وطنه الأول وتححر منه ، طمح إلى الحصول على كل نوع من أنواع الاستقلال . وشيئاً فشيئاً لم يعد أحد يشعر بسلطان الأفراد ، واتحدت العادات مع القوانين ، وسارتا معاً نحو هدف واحد .

ولكن قانون الميراث كان آخر خطوة في سبيل تحقيق المساواة . وإني ليدعشني أن أجد قدامى الكتاب والمشرعين ومحدثيهم على السواء ، لا يعززون إلى هذا القانون تأثيراً أعظم مما عزوه إليه في شئون البشر . نعم إن قوانين الميراث أدخلت في شئون المدنية ، ولكنها مع ذلك ينبغي أن توضع على رأس جميع المؤسسات السياسية ، فإن لها لسلطاناً عظيماً على أحوال الشعب الاجتماعية يكاد لا يصدق . على حين أن القوانين السياسية لاتعدو أن تكون تعبيراً عن هذه الأحوال . وزيادة على ذلك فلها طريقة مؤكدة وموحدة في تأثيرها في المجتمع ، حتى لكأنها تؤثر في الأجيال التي لم تولد بعد . فيها يحصل المرء على سلطة عجيبة فذة يسيطر بها على حظوظ بني جنسه ومقدراتهم . فبعد أن يفرغ المشرع من سن قانون الميراث يحق له أن يستريح من عمله عدة قرون طوال ؛ لأن الآلة إذا ما تحركت مرة الحركة التي أعطاها إيها ، ظلت تسير دهوراً طويلة وتتقدم على نحو كأنها تسترشد بنفسها وحدها ، تجاه نقطة تعينت من قبل . وإذا ما صيغ هذا القانون على صورة معينة ، وحد الملكيات ، وضم بعضها إلى بعض ووضعها ، مع القوة والسلطان ، مركزة في أيدي قلائل .

فهو يستطيع بشكل ما أن يمكن لأرستقراطية معينة أن تخرج من الأرض الزراعية . وإذا ما بنى على مبادئ مخالفة ، ووجه وجهة أخرى ، صار تأثيره أسرع وأمضى لأنه يقسم كلا من الممتلكات والسلطة ويفرقهما .

وقد يحدث أن ينزعج الناس الذين استولى عليهم اليأس من وقف حركته فيعمدوا إلى مقاومته بوضع الصعاب ، وإقامة العراقيل في طريقه على الأقل ، ولكن كل ما يذلونه من جهود مضادة لمقاومة آثار هذا القانون يضيع عبثاً ، فإنه يتمكن من التغلب على كل عقبة تلقى في سبيله ويسحقها سحقاً حتى لا يبقى منها سوى سحابة متقلبة من العتير غير متماسكة تبشر بمجئ الديمقراطية . فعندما يقضى هذا القانون بالمساواة بين الإخوة جميعاً في ميراث أبيهم ، فإنه يؤدي إلى نوعين من النتائج ، من الخير أن نغير كل نوع منهما عن الآخر ، وإنما كانا كلاهما يهدفان إلى غرض واحد .

فيتأثر قانون الميراث هذا ، صارت وفاة كل صاحب أملاك تؤدي إلى انقلاب في نظام الملكية . فلا تنتقل الأملاك من يد إلى يد فحسب ، بل تتغير طبيعتها كذلك مادامت تتوزع أقساماً تظل تتناقص وتتضاءل عقب كل توزيع ، تلك هي نتيجة هذا القانون المباشرة ، وإن شئت قلت أنها نتيجته المادية ، فقد صارت الملكية ، وبخاصة ملكية الأراضي في البلاد التي قرر قانون المساواة اقتسامها ، تتجه دائماً إلى التناقص ، ومع ذلك فآثار مثل هذا التشريع لا تكون ملموسة إلا بعد زمن غير قصير إذا ما ترك فيه القانون وشأنه . فإذا فرضنا أن عدد الأطفال في الأسرة لا يزيد على اثنين - وهو في فرنسا لا يزيد على هذا العدد عادة - فإنهما لن يكونا بعد اقتسام ثروة أبيهما أقل ثراء من الأب أو الأم . ولكن قانون المساواة في تقسيم الموارث لا يؤثر في الأملاك وحدها ، بل يؤثر في عقول الورثة أيضاً ، ويحرك شهواتهم وأهواءهم . فهذه النتائج غير المباشرة تؤدي بقوة إلى تفويت الثروات الضخام ، ولا سيما ما كان منها يقوم على الضياع الواسعة .

ففي الأمم التي يقوم قانون الوراثة فيها على أساس حق الابن الأكبر وحده ، تنتقل الضياع عادة من جيل إلى جيل كاملة غير منقوصة مما يؤدي إلى اندماج عواطف الأسرة في الضيعة إلى حد ما ، وتمثل الأسرة الضيعة ما تمثل الضيعة الأسرة التي يخلد بذلك اسمها ، وأصلها ومجدها وقوتها وفضائلها في ذكريات من الماضي ، وتكون ضماناً أكيداً للمستقبل .

فحيثما يقضى القانون بتقسيم الأملاك بين الأبناء بالسوية تنفصم الرابطة الوثيقة التي بين عاطفة الأسرة وضياع الأجداد ، ولم تعد هذه الضياع تمثل الأسرة . ولما كان لامناص من تقسيمها بعد جيل أو اثنين تبين لنا أنها ستظل تتناقص إلى أن تنفقت ويئول أمرها إلى الزوال . حقاً إن أبناء الرجل صاحب الضياع الواسعة ، إن كانوا قلة ، أو واتاهم الحظ ، لهم أن يأملوا في أن يصيروا هم أيضاً أثرياء مثل والدهم ، ولكن لا أمل لهم ألبتة في أن يظلوا يملكون نفس الضياع التي كانت له . فثراؤهم الطريف يتألف من عناصر غير تلك

التي كانت تتألف منها أملاك أبيهم . فإن نحن جردنا صاحب الضياع من عاطفته التي تحفره إلى الاهتمام بصيانة ضيعته والحفاظة عليها ، تلك العاطفة التي يستمدّها من طول عهده بالضبيعة ومن التقاليد ومن مفاخر الأسرة وأجدادها ، فلتكن على ثقة من أن يوماً سيأتي عليه فيتصرف فيها ، ويتخلّى عنها ، بعد زمن طال أو قصر . فله في بيعها مصلحة مالية كبيرة إذ لا يخفى أن رؤوس الأموال الجارية ، تغلّ ربحاً أكبر مما تعطيه الأموال العينية الثابتة فضلاً عن أن الأولى (الجارية) تكون ميسورة له وتحت تصرفه في كل وقت فيستطيع أن ينفق منها ما شاء على ملذاته وشهواته العاجلة .

فإذا حدث أن تقسمت الضياع الواسعة مرة ، فلن تعود وتتجمع مرة أخرى . فالمالك الصغير يستمد ربحاً أعظم نسبياً مما يستمدّه صاحب الضيعة الكبيرة من ضيعته ، ذلك إلى أنه قد يبيعها بسعر أعلى ، بطبيعة الحال . فاعتبارات الربح التي حفزت الغنى إلى بيع ضياعه الواسعة تحفره هي نفسها بقوة أعظم إلى الامتناع عن أن يشتري ضياعاً صغيراً كي يضمها بعضها إلى بعض فيكون له منها ضيعة واحدة كبيرة .

إن ما يسمونه كرامة الأسرة أو كبرياءها . كثيراً ما يكون أساسها خداعاً من حب الذات . فالمرء يتمنى أن يخلد نفسه ، كما يقولون ، في أحفاد أحفاده . فإن بطل عمل كبرياء الأسرة هذا ، عادت أثرة الفرد تعمل عملها . حتى إذا ما أصبحت فكرة الأسرة غامضة غير محدودة ولا مؤكدة ، سارع الإنسان يفكر فيما فيه راحته العاجلة ، وحسبه أن يعد العدة لجيله التالي لا أكثر منه . فهو إما أن يدع فكرة تخليد أسرته هذه . وإما أن يسعى وراء تحقيق ذلك بطرق أخرى غير حيازة الأراضي والضياع .

وهكذا نرى قانون تقسيم الموارث لا يجعل احتفاظ الأسرة بأموال الجدود وضياعها كاملة أمراً من الصعوبة بمكان فحسب . بل يجرد الأسرة من الميل إلى محاولة هذا الاحتفاظ ، ويضطرها بمعنى ما إلى التعاون مع القانون في القضاء على نفسها . ويعمل قانون تقسيم التركة بالتساوي بطريقتين : فبتأثيره في الأشياء يؤثر في الأشخاص أنفسهم . وتأثيره في الأشخاص يؤثر في الأشياء . فبهاتين الوسيلتين كلتيهما ينجح في تقويض الأساس الذي تقوم عليه الملكية العقارية ، ويعثر الأسرات كما يعثر أموالها بسرعة .

ليس من شك في أنه ليس لنا نحن الفرنسيين الذين نعيش في القرن التاسع عشر ، ونشاهد كل يوم التغييرات السياسية والاجتماعية التي تترتب على تنفيذ قانون التقسيم هذا - ليس لنا أن نتشكك فيما له من تأثير . فإنا نشاهده يعمل في بلادنا باستمرار ، فيهدم أسوار منازلنا ، وينزع معالم حقولنا . ومع ذلك ففي الرغم مما فعله في فرنسا وما يزال أمامه الكثير من الأفاعيل ينجزها ، فذكرياتنا وآراؤنا وعاداتنا لتقيم الكثير من العراقيل في سبيل تقدمه .

أما في الولايات المتحدة فإن عمله الهدام يكاد يكون قد تم فعلاً . وفيها نستطيع أن

ندرس نتائجه الأساسية خير درس . لقد ألغيت القوانين الإنجليزية الخاصة بنقل الملكية في جميع الولايات تقريباً في عصر الثورة . وعدل قانون الوقف حتى لا يكون عقبة كأداء في سبيل حرية تداول الأموال . وبعد انقضاء الجيل الأول صارت الضياع توزع وتقسم ، وازدادت الحركة سرعة على مر الزمن . والآن لم تكد تضى عليهم ستون عاماً ، تغير شكل المجتمع تغيراً كبيراً ، فاختلطت أسر كبار الملاك جميعها تقريباً بجماهير الناس كل اختلاط . ففي ولاية نيويورك التي كانت تضم من قبل كثيرين من أمثال كبار الملاك هؤلاء لم يتبق سوى مالكين اثنين يستطيعان أن يفخرا بنسبهما وحسبهما على سائر أهل الولاية ، ولكنهما سرعان ما يزولان هما أيضاً . فقد أصبح أبناء هؤلاء المواطنين الموسرين تجاراً ومحامين وأطباء ، وتدخل الكثيرون منهم في غمار الخاملين ، فزال آخر أثر من آثار الألقاب والرتب الموروثة ، فقد جعلهم قانون تقسيم الموارث في مستوى واحد كلهم .

لأعنى مما أقول أن الولايات المتحدة ليس فيها أغنياء ، فلست أعرف بلداً استولى فيه حب المال على قلوب الناس بقدر ما استولى عليه في أمريكا ، ولست أعرف بلداً يبدى فيه الناس احتقاراً كبيراً لنظرية تساوى الناس الدائم في الأموال بقدر ما يبدىه هؤلاء الأمريكيون . ولكن الثروات عندهم تتداولها الأيدي بسرعة مذهلة ، وقد دلت الخبرة على أنه يندر أن نجد جيلين متعاقبين يستمتعان بتلك الثروة استمتاعاً كاملاً .

قد يخيل لبعض الناس أن الصورة التي رسمتها متكلفة ، ولكنها في الواقع تعطى فكرة قاصرة كل القصور عما يحدث في ولايات الغرب والجنوب الغربي الجديد . ففي أواخر القرن الثامن عشر شرع جماعة من المغامرين يتوغلون في وادي نهر المسيسيبي ، ولم يلبث أن حذت حذوهم جماهير كثيرة . فظهر في الصحراء جماعات لم يكن أحد قد سمع بها من قبل . وقامت ولايات تطالب بالانضمام إلى الاتحاد الأمريكي لم تكن ترى منذ أعوام على الخريطة . وفي الجهات الغربية نجد الديمقراطية قد بلغت أوجها ، وفي الولايات التي تأسست ارتجالاً ، أو بالمصادفة إن شئت ، نجد السكان كلهم من أبناء الأمس القريب . فالجيران الجنب لا يعرف بعضهم بعضاً ، فلا غرو إن لم يكن أحد منهم يعرف شيئاً عن تاريخ الآخر . وهكذا فات سكان هذا الجزء من القارة الأمريكية تأثير تلك الأرستقراطية الطبيعية لأرستقراطية الأسماء العظيمة والثروة الطائلة ، بل حتى أرستقراطية العلم والفضل . فليس بينهم من يستطيع أن ينهض بتلك القوة المحترمة التي يبادر الناس في ارتياح إلى منحها ، لذكرى حياة قضاها صاحبها في عمل الخير بين ظهرانيهم . لقد أصبحت ولايات الغرب الجديدة حافلة بالسكان ، ولكن الجماعة - بالمعنى الصحيح - ليس لها وجود فيها .

ليست حظوظ الناس وحدها هي المتعادلة في أمريكا ، بل تكاد معلوماتهم تتعادل هي الأخرى إلى حد ما . ولست أعتقد أن ثمة بلاداً أخرى غيرها في العالم ، تحتوى مثلها على عدد قليل من الجهلاء بالنسبة لعدد سكانها ، وكذلك عدد قليل من العلماء بالنسبة لعدد

سكانها أيضاً . فالتعليم الابتدائي في متناول كل إنسان ، على حين لا يكاد يصل إلى التعليم العالي أحد . وليس في هذا ما يدعو إلى الدهشة ، فهذه نتيجة محتمة لما ذكرناه من قبل ، فالأمريكيون كلهم يكادون يعيشون في رخاء ، وليس يعز عليهم أن يحصلوا على مبادئ المعرفة البشرية .

ليس في أمريكا سوى عدد قليل من الأغنياء . فعلى الأمريكيين كلهم تقريباً أن يجدوا لهم مهنة يحترفونها : ولا يخفى أن كل حرفة تستلزم تدريباً قد يكون طويلاً . والأمريكيون لا يستطيعون أن يتفوقوا في التعلم سوى السنوات القليلة الأولى من أعمارهم ، ثم يعتمدون إلى مزاولة المهن المختلفة وهم في الخامسة عشرة . وبذلك أصبحت التربية عندهم تنتهي في السن التي تبدأ فيها في فرنسا ، وإن استمر التعليم عندهم إلى ما بعد هذه السن كان الغرض منه الاختصاص بناحية معينة ينتظر أن تدر ربحاً جزيلاً على صاحبها ، فالمرء منهم يتدرب على العلم كما لو كان يتدرب على مهنة من المهن ، فهو لا يحاول إذن أن يزاوِل تطبيق العلم إلا على النواحي العملية التي لا يتنازع اثنان في أنها عملية حقاً .

كانت الكثرة من الأغنياء في أمريكا فقراء أصلاً .. وكان أكثر الذين يستمتعون الآن بالفراغ منهم منهمكين في صباهم وفي شبابهم كل الانهماك في الأعمال ، مما ترتب عليه أنهم عندما يميلون إلى شيء من الدراسة لا يكون عندهم من الوقت ما يكفي لإرضاء هذا الميل ، وإذا توافر لهم الوقت الكافي كان هذا الميل قد زایلهم .

ليس في أمريكا إذن طبقة يبلغ بها الميل إلى المتعة العقلية حداً يسر لأبنائهم أن يرثوه عنهم مع ما يرثونه من الأموال والفراغ . ويكون الاشتغال بالأمر الذهنية فيها موضع التكريم والصدارة . ومن ثم كانت تنقصهم جميعاً الرغبة في هذه الأهداف ، والقدرة على السعي وراء تحقيقها بهمة ونشاط .

أقام الناس في أمريكا معياراً وسطاً للمعرفة البشرية ، يعملون كلهم على الاقتراب منه جهدهم ، فمنهم من يقترب منه وهو صاعد ، على حين يقترب منه آخرون وهم هابطون . ولا شك في وجود عدد من الناس يشتركون في الإيمان بآراء معينة في الدين ، وفي التاريخ ، والعلم ، والاقتصاد السياسي . والتشريع . وأصول الحكم . أما تفاوت الناس في المواهب العقلية فمن صنع الله نفسه . ولا يستطيع البشر أن يمنعوا وجوده فيهم . ولكن ينتج على الأقل مما ذكرناه من قبل أن الأمريكيين على الرغم من اختلاف مواهب الناس وقدراتهم العقلية التي وهبهم الله إياها ، متساوون فيما في متناولهم من الوسائل التي يستخدمون بها هذه المواهب .

كان العنصر الأرستقراطي ضعيفاً دائماً في أمريكا منذ مولده فيها . وإن لم يكن قد انقرض بعد في الوقت الحاضر تمام الانقراض ، فهو على كل حال عاجز كل العجز حتى أننا لانستطيع أن نعزو إليه أي تأثير محسوس في مجرى الأحداث .

أما المبدأ الديمقراطي فعلى العكس من ذلك ، فقد صارت له بمرور الزمن وتوالى الأحداث ، وبالتشريع - قوة جعلت له وحده معظم السلطة ، بل السلطة كلها . إننا لانكاد نشعر بوجود سلطة لأسرة ، أو هيئة ما ، بل كثيراً ما يعجز المرء أن يجد في هذا المبدأ أى تأثير فردى مستمر يتجلى في أحوال أمريكا الاجتماعية . تتجلى إذن ظاهرة عجيبة غير مألوفة ، فترى الناس فيها متساوين من حيث حظوظهم في الدنيا ، ومن حيث مواهبهم العقلية ، وبعبارة أخرى تراهم متساوين في قواهم أكثر من تساوى غيرهم في أى بلد آخر من بلاد العالم أو في أى عصر من عصور التاريخ المدون المسطور .

النتائج السياسية المترتبة على أحوال الأمريكيين الاجتماعية

من الميسور معرفة ما قد يترتب على مثل هذه الأحوال الاجتماعية من نتائج سياسية . فيستحيل علينا أن نصدق أن المساواة لا ينتهى بها الأمر أن تجد سبيلها إلى دنيا السياسة كما وجدتها في كل ناحية أخرى - فلنسا نستطيع أبداً أن نتصور أن الناس سيطلون إلى الأبد متفاوتين في نقطة واحدة ، ومتساوين في سائر النقاط الأخرى ، فلا بد أن يصلوا في النهاية إلى التساوى فيها جميعاً .

ولست أعرف غير طريقتين اثنتين لإقامة المساواة بين الناس في عالم السياسة : فإما أن تمنح الحقوق لكل مواطن من المواطنين ، وإما لا يمنح شيء منها لأحد ما . فمن حيث الأمم التي وصلت إلى ذلك المستوى الاجتماعي نفسه الذي وصل إليه الأمريكيون الإنجليز ، فمن الصعب علينا كل الصعوبة أن نوفق إلى إيجاد شيء وسط بين سيادة الجميع وبين القوة المطلقة التي في يدى رجل واحد . وإنه لمن العبث أن ننكر أن الأحوال الاجتماعية التي وصفتها توا ، يمكن أن تكون معرضة لواحدة من هاتين النتيجتين تعرضها للأخرى تماماً .

وفي الواقع يوجد ميل مشروع نحو المساواة الحققة وجددير بها ، يدفع الناس جميعاً نحو أن يكونوا أقوياء مكرمين . وهذا الميل ينزع إلى النهوض بالوضع إلى مستوى العظيم . ولكن في نفوس البشر كذلك ميلاً منحرفاً سقيماً نحو المساواة يدفع بالضعيف إلى أن يحاول أن ينزل بالقوى إلى مستواه هو ، وجعل الناس يؤثرون المساواة في العبودية على التفاوت مع الحرية . وليس معنى ذلك أن الأمم الديمقراطية في أحوالها الاجتماعية تحتقر الحرية بطبيعة أمرها ، بل الأمر على العكس من ذلك ، فبها ميل طبعى إليها . ولكن الحرية ليست هدفها الأول الدائم الذي تتجه إليه رغائبها ، أما المساواة فمعبودها الخالد . فالناس في هذه الأمم يذلون جهوداً سريعة فجائية للحصول على الحرية ، فإن لم يصيبوا غرضهم استسلموا للفشل . ومع ذلك فليس شيء يرضيهم غير المساواة ، وإنهم ليؤثرون الموت على أن يفقدوها .

ومن جهة أخرى ، يصعب كل الصعوبة على المواطنين الذين يكادون يتساوون في

كل شيء ، أن يحتفظوا باستقلالهم إزاء اعتداءات القوة . فليس لأحد منهم ما يمكنه من أن يناضل وحده في سبيل هذا الاستقلال ، ويكون له أمل في الفوز . فلا شيء يحمي حريتهم سوى اتحادهم بعضهم مع بعض ، وإن لم يكن هذا الاتحاد ميسورا للناس دائما .

تستطيع الأمم إذن أن تستمد من مثل هذا الموقف الاجتماعي نفسه إحدى نتيجتين أساسيتين عظيمتين ، وإن كانتا مختلفتين كل الاختلاف . فإنهما ترجعان كلتاهما إلى سبب واحد بعينه .

لقد كان الأمريكيون الإنجليز أول أمة أسعدها الحظ بالإفلات من سيطرة السلطة المطلقة . فقد أتاحت لهم أحوالهم الاجتماعية . وأتاح لهم أصلهم . وذكاؤهم . ولا سيما عاداتهم الأخلاقية ، أن يقيموا سيادة الشعب ويعملوا على صيانتها والمحافظة عليها .